المبحث الثاني

اللون في شعر الطبيعة

حبا الله الأندلس بطبيعة ساحرة، كانت مرتعاً خصباً ينهل منه الشعراء صورهم ومعانيهم وأخيلتهم الزاخرة بالجمال، فتؤطر رؤاهم، وتفتن إحساسهم المفعم بالحياة، وذلك بما تحويه من حسنٍ بهيٍّ جسّدته الجبال الخضر، والأنهار، والأشجار، وطيب النسائم.

فضلاً عن ذلك، فإنّ طبيعة التكوين النفسي للأندلسيين، وشدّة تعلّقهم ببلادهم، وافتتانهم ببيئتهم، ساعد على نموّ شعر الطبيعة، بل أصبح سمة يتّصف بها الشعر الأندلسي، ويتفوّق بها على المشرقيّ، فكان من الطبيعي ((أن يزدهر وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي، لخصب المجال ووفرته وتعلّق أهله به، خصوصاً أيام استقرارهم النفسي والسياسي))[1].

إلى جانب ذلك؛ فإنّ شعر الطبيعة اكتسب سمة الصدق في التعبير عن العواطف والأحاسيس الفيّاضة، التي تحرّكها عدة عوامل، كالحبّ، والشوق إلى الوطن، فهي تثير المتعة في النفوس، سواء أكان استذكار الشاعر لملاعب صباه ومغامرات شبابه التي احتضنتها الطبيعة الوارفة، يتنزّه في مغانيها فيمتّع بصره، ويستمدّ منها الجمال والألوان، ليستقي من تلك الأوصاف ما يشاء، ويخلعها على محبوبته، أم كان شوقاً وحنيناً إلى الموطن الذي ابتعد عنه، فأثار ذلك البُعدُ مكامن وجده وشوقه، فاسترجع تلك الأيام الخوالي متحسّراً متلهفاً على ضياعها، وما اختزنته ذاكرته من لوحاتٍ طبيعية ملوّنة ظلّت راسخة ماثلة أمام ناظريه؛ فكانت ((باعثاً قوياً من بواعث الشعر... لها في نفوس الشعراء وقع عميق الأصداء

(١) الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري (موضوعاته وخصائصه)، قاسم الحسيني: ٢٢٤.

بعيدها))[١]، لذا يمكن القول: ((إنّ وصف الطبيعة في الأندلس كان على الغالب الأعم، شغفاً بمحاسنها وتصويراً حسيّاً لمباهجها، تموج به، بين حينٍ وآخر، خفقة من حياة ودفقة من عاطفة صادقة))[٢].

وتظهر قيمة وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي حين تصبح اللوحة الطبيعية بألوانها ومباهجها مقدمةً لقصائدهم، مستعيضين بها عن مقدمات الغزل وغيرها من الأغراض الأخرى، فأكثروا من أوصاف الورد والأزهار، وتغنّوا بالرياض والأنهار، وبكلّ مظهرٍ من مظاهر الجمال[٣].

حمل اللون تأثيراً فاعلاً في نقل مشهد الطبيعة الأندلسية، ومَنَحَ الصورة بعداً شعرياً، يكرّس جماليتها، ويستكمل عناصر تشكيلها، بوصفه عنصراً من العناصر الصورية، وركناً أساسياً من أركانها[٤].

أدرك الشاعر الأندلسي قيمة اللون وقدرته في التعبير عن المدركات الفنّية والمعنوية العميقة للنصّ، فأولاها عنايته؛ كونها ترفد شعريته بفيضٍ من الإيحاءات والرموز والدلالات، التي تفتح للمجال الإبداعي الخلاّق، آفاقاً أوسع، يمكن للنص أن ينبثق من خلالها، ليكشف عن إمكانياته وتجلّياته.

قسّمت الدراسات الأدبية شعر الطبيعة تقسيماً ينسجم مع المفهوم العام لمعنى كلمة الطبيعة[٥]، وهي بمجملها تكون على صنفين:

أ- الطبيعة الصامتة.

ب- الطبيعة الحيّة.

أ. الطبيعة الصامتة:

(١) فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، د. حكمة علي الأوسي: ٣٨.
(٢) الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودت الركابي: ٥٠.
(٣) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، د. إحسان عباس: ٨٤.
(٤) ينظر: ذو الرمة، شمولية الرؤية وبراعة التصوير، د. خالد ناجي السامرائي: ١٩٣.
(٥) ينظر: الطبيعة في الشعر الأندلسي: ١٢٥ ـ ١٢٦، والبيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ١٠٥.

يقصد بالطبيعة الصامتة ((مظاهرها ووجودها المتجسّد في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك))[١]، وهي ممثلة بما تحويه الطبيعة من رياض وزهور وأنهار وأبنية وقصور، إذ إنّ اللون يعدّ عنصراً مهماً في تشكيل هيئتها، بما يمتلكه من قدرة تصويرية فائقة، ترتفع بالنصّ إلى مستوى الاستجابة بين الشاعر والمتلقي، من ناحية التأثّر والتأثير، لذا ستقف الدراسة على النماذج الشعرية المجسّدة للطبيعة الصامتة، كالرياض، والزهور، والثمار، والأنهار وما شاكلها.

١. الرياض:

يتجسّد اللون في وصف الرياض بصورة جميلة في قصيدة لـ(صفوان بن إدريس التجيبي ت٥٩٨هـ) يقول فيها[٢]:

جاد الربى من بانة الجرعاءِ ... نوآنِ من دمعي وغيم سماءِ

يا ليت شعري والزمانُ تَنَقُّلٌ ... والدهرً ناسخُ شدّةٍ برخاءِ

هل نلتقي في روضةٍ موشيةٍ ... خفّاقة الأغصان والأفياء

ونَنال فيها من تألفنا ولو ... ما فيه سخنة أعين الرقباء

في حيث أتلعت الغصون سوالفاً ... قد قلدت بلآلئ الأنداء

وبدت ثغور الياسمين فقبّلت ... عنّي عذار الآسة الميساء

والوردُ في شطّ الخليجِ كأنه ... رَمَدٌ ألمَّ بمقلةٍ زرقاء

وكأنّ غضّ الزهرِ في خُضر الرُبى ... زُهْرُ النجومِ تلوحُ بالخَضراء

وكأنما جاءَ النسيمُ مُبَشراً ... للروضِ يُخبِرُهُ بطولِ بَقاء

فكساهُ خلعةَ طِيبِهِ وَرَمَى لَهُ ... بدراهم الأزهارِ رمي سخاء

---

(١) الطبيعة في الشعر الأندلسي: ٧.
(٢) شعر صفوان بن إدريس المرسي، القسم الأول: ١٩٥ ـ ١٩٦.

وكأنمـــا احتقـــرَ الصـــنيع فبـــادرت للعـــذرِ عَنـــهُ نغمـــةُ الورقـــاءِ
والغصـنُ يـرقص فـي حلـى أوراقـه كـــالخود فـــي موشـــيّةٍ خَضـــراءِ
وافتـــرّ ثَغـــرُ الأقحـــوانِ بمـــا رأى طربـــاً وقهقـــهَ منـــهُ جَـــريُ المـــاءِ

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف روضةٍ غنّاء تُبهر العيون بما اشتملت عليه من جمال آسر، وألوانٍ أخّاذة، ثم يضفي على الطبيعة الصامتة حياةً بشرية حين يلقي عليها صفة العشق، إذ يمنح الياسمين فماً يقبّل الآس، ويجعل الورد بألوانه المتنوّعة يحفّ النهر بزرقته الطاغية.

ثـم يسـتعمل الشـاعر أدواتـه البلاغيـة فـي التشـبيه، إذ يجمـع بـين صـورتين مختلفتـين، يسـتوحيهما مـن الطبيعـة، فـالأولى: (غـضّ الزهـر فـي خُضـر الربـى)، والأخرى: (زُهرُ النجوم تلوح بالخضراء)، إذ يمزج الشاعر الصورتين اللونيتين ويداخل بعضها في بعض، لينتج مشهداً أثيراً محبباً إلى النفس.

اجتمعت للشاعر عدة عناصر جعلته قادراً على المناورة بها، فاستعملها في تحريك الحدث، كالرياح، والصوت، والصورة، فتفاعل المشهد طرباً، وقد ظهر المشهد واضحاً في أبعاده الثلاث؛ ممّا قرّب الصورة ومكّنها من أداء دورها، لاسيّما وأنّها تبثّ موجاتها اللونية الموحية بشكل جميل.

وفي موضع آخر يقول (أبو علي بن كسرى المالقي ت٦٠٣هـ)[١]:

ومشـمولةٍ رقّـت فلـم تـرضَ صـاحباً لهـا غيـر مشـمول النطـاق رقيـقِ
يفـيضُ علـى كـفّ المـدير شـعاعها كـــأنّ عليـــه منـــه درع خلـــوقِ
إذا شـــجّها بالمـــاء حلّـــى كؤوســـها بـــدُرٍّ فحلّـــت خـــدّه بعقيـــقِ
ومـا هـي إلاّ الشـمس تشـرق مـن فـمٍ وقـد أذنـت فـي وجنـةٍ بشـروقِ

(١) شعر أبي علي بن كسرى المالقي (٦٠٣ ـ ٦٠٤هـ)، د. سليمان القرشي، مجلة الذخائر، بيروت، العددان: ١١و١٢، ٢٠٠٣م: ١٣١.

أدر ها على الروض الذي راق حُسنُهُ فكم لك من مرأى هناكَ أنيقِ

إذا أعيُنُ النوّار أيقضها الحيا تضاحكت الأكواس فعل عشيقِ

يبدأ الشاعر قصيدته بذكر الخمر لما لها من ألوان متعددة، ليصل بذلك إلى وصف الرياض وما تشتمل عليه من أنهار وأزهار وما شاكل ذلك، فيصف انعكاس الشعاع على من يدير كؤوس الخمر.

إنّ هذه الانعكاسات بين الألوان ومشاهد الطبيعة التي تبثّها الرياض، والخمر، والساقي، تداخلت في وصف لوحة مميزة في نفس الشاعر، حتى يلتقط مشهد شروق الشمس، ويطوّعه في صورة طريفة من ناحية ظهوره في الفم، وما يلقيه من لون على الوجنة، ممّا يبيّن قدرة الشاعر على توظيف اللون في مشهد الطبيعة.

تمكّن الشاعر من تحريك هذه الطبيعة الصامتة، فأضفى عليها وحدات لونية غير صريحة، من ضياء، وسنا، وأزهار، وخمر ممزوجة بألوان الطبيعة، ممّا جعل المشهد حياً على الرغم من سكونه، إذ حرّك في المتلقي المشاعر والأحاسيس النابضة بالحياة، والدفء والألفة.

هكذا دأب الشاعر الأندلسي على المزاوجة بين ألوانٍ بعينها تتوافر في الرياض والخمر، إذ ألّف بينهما، وأبدع في تصويرهما حينما استعمل لغة شفافة تنمّ عن ذوق مميز في اختيار الألفاظ الدالة على اللون الذي يقدّم صورة الأشياء وكأنّها نابضة بالحياة.

٢. الزهور:

شكّلت الزهور ملمحاً واضحاً في الشعر الأندلسي يمكن أن ينهض بالدلالات اللونية المعبّرة عن شعر الطبيعة في الأندلس، ((ولم تخلُ قصيدة منها من تشكيل باللون كعنصرٍ جمالي ونفسي، إن لم يكن ذكر اللون في بعضها مباشراً، فإننا نرى التلوين والتزيين يتّخذ شكلاً موحياً في وصف غير مباشر...))[١].

(١) صورة اللون في الشعر الأندلسي (دراسة دلالية وفنية)، د. حافظ المغربي: ١٣.

من ذلك قول (ابن شكيل[١] ت٦٠٥هـ) في وصف سوسنة[٢]:

سَوسَـــنَةٌ بَيضـــاءُ قَـــد أَودَعَـــت شَـــــقيقَةً قانِيَـــــةَ البُـــــردِ

أَبيَضُـــــها عَـــــن أَحمَـــــرٍ كَـــالبُرقُعِ اِنشَـــقَّ عَـــنِ الخَـــدِّ

يتقصّى الشاعر في استعراضه للطبيعة الأندلسية وصف زهرة السوسن البيضاء، ويجسّدها من خلال الإفادة من التداخل اللوني بينها و بين شقيقتها قانية اللون، فيشبه هذا التداخل بانزياح البرقع عن خدّ المرأة الحسناء.

إنّ هذا التصوير اللوني لزهرة السوسن زاوج بين وصف الطبيعة الساكنة، وما يماثلها من حياة في وجه الحسناء، و هو ما قدّم للصورة بعداً آخر جعلها تُبرز حياة نابضة بتفاصيل دقيقة، التقطها الشاعر وجسّد بها صورة اللون في هذين البيتين.

وفي موضع آخر يصف (ابن حمديس ت٥٢٧هـ) النيلوفر فيقول[٣]:

وَنَيْلُـــوفَرٍ أَوْرَاقُـــهُ مُسْـــتَديرَةٌ تَفَـــتّحَ فيمـــا بيـــنهنّ لَـــهُ زَهْـــرُ

كَما اعتَرَضَتْ خُضرُ التِّرَاسِ وَبَينَها عَوامِـــلُ أَرمـــاحٍ أَسِـــنَّتُها حُمـــرُ

هُـوَ ابْـنُ بِـلادي كَـاغتِرابي اغتِرابُـهُ كِلانـا عَـنِ الأَوْطـانِ أَزْعَجَـهُ الـدَّهرُ

يسعى الشاعر إلى إظهار التداخل اللوني والتضاد الحركي في بسط فكرته التي تناول فيها زهرة النيلوفر و هي تنفتح على هذا العالم، على الرغم من انغلاقها واستدارتها.

عزز الشاعر صورة النيلوفر المتفتح من خلال مقاربته بمشهد الحرب الذي أخذ منه أدواته: الترس، الرمح، إذ أضفى عليهما ألواناً زاهية صريحة مثل: الأخضر والأحمر، ليوائم بين النفس، والطبيعة الصامتة، ويجعل للإنسان من صفاتها.

---

(١) أحمد بن يعيش بن شكيل الصوفي، أبو العباس: شاعر أندلسي، من أهل شريش. الأعلام: ١/ ٢٧١.

(٢) أبو العباس أحمد بن شكيل الأندلسي (شاعر شريش)، د. حياة قارة: ٥٣.

(٣) ديوانه: ١٨٥.

و من موا ضع ذ كر الأز هار واقترانها بالغزل، قول (ا بن ز مرك الأندلسي ت٧٩٧هـ) يصف أزهاراً متعددة، يقول فيها[١]:

ترقـرقَ دمـعُ الطـلّ فـي لحـظِ نـرجسٍ فكـــم مـــدمعٍ للعاشـــقينَ بـــهِ طُـــلاّ

وآسُ عـــذارٍ فـــوق ثغـــر إقاحـــةٍ يُقبّـلُ خـدَّ الـورد فـي الوجنـة الخجلـى

يحيل الشاعر الصفات الإنسانية على الأز هار عبر آلية التشخيص، فيجعل دمعها يترقرق في عيون النرجس والآس، إذ يستثمر الشاعر الألوان التي تنكشف عن حالات التحوّل في الحزن والعشق، فكلاهما يظهر فيه اللون بصورة مغايرة عن الأخرى. وقد جسّد الشاعر الألوان في هذا المشهد بصورة جميلة، من خلال تداخل الطبيعة الممثلة بالطلّ، والنرجس، مع الصفات الإنسانية من دمع، ولحظ، وأكّد هذا التداخل في البيت الثاني حينما قرن بين الآس، والإقاح من جهة، وبين العذار والثغر من جهة أخرى.

أمّا (ابن صارة[٢] ت٥١٧هـ) فيختار من الطبيعة لوناً صريحاً جسّدته شقائق النعمان بلونها المميّز فقال[٣]:

هـــذا الثنـــاءُ إلـــى زَمـــانٍ مُشـــرقٍ أهـــدى إليـــكَ شـــقائقَ النُعمـــانِ

قامـت فُـرادى فَـوقَ سـوقِ زَبَرجـدٍ صِـــيغَت عَليـــه جَمَـــاجمُ العُقيـــانِ

يهفـــو بهـــا مَـــرّ النســـيمِ كأنّهـــا حُمـــرُ البنـــودِ نُشِـــرنَ فـــي ميـــدانِ

ركّز الشاعر على زهر شقائق النعمان بما يوحيه من لون كان ركيزة أساسية في بقية الأبيات، واكتسب ـ اللون ـ قدرة دلالية كبيرة من خلال تأكيد الشاعر العبارات اللاحقة، التي تتزين باللون الأحمر، سواء أكان صريحاً أم غير صريح.

---

(١) ديوانه: ٢٥٠.

(٢) عبد الله بن محمد بن صارة البكري الأندلسي، أبو محمد: شاعر، من الكتاب. ولد في شنترين وتجول في بلاد الأندلس شرقا وغربا. ومدح الولاة والرؤساء. وكتب لبعضهم. ثم عول على الوراقة وسكن المرية وتوفي بها وفي شعره رقة. ينظر: الأعلام: ٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) ابن صارة الأندلسي (حياته وشعره)، د. مصطفى عوض الكريم: ٥٥.

ينقل الشاعر إعجابه بهذا الزهر إلى المتلقي بصورة جميلة من خلال ذكر القرائن التي تبيّن أثر اللون الأحمر في المشهد الطبيعي، وهو يستقي بعض ألفاظه من مشهد الحرب الدامي، للدلالة على القوة التي يتمتع بها زهر شقائق النعمان بما يحويه من لونٍ مميز، ((والزهرة بشمائلها: لونها، رائحتها، لفظة تنقل المعاني، وبخاصة ما يخاف افتضاحه، وهي بكلمة لا تنطق بالتعريض والتصريح، ولكن بالشمائل والهيئات...))[1].

٣. الثمار:

إلى جانب الأزهار بما تحويه من أصناف وألوانٍ متنوعة، يحفل الشعر الأندلسي بأوصاف كثيرة للفاكهة والثمار، التي كانت معيناً ثرّاً نهل منه الشعراء أوصافهم، وأبدعوا في نقل الصور الجميلة التي تحملها ألوانه، إذ كان ارتباط اللون بهذه الثمار صفة لازمة وواضحة في أغلب الأبيات الشعرية، فهي صريحة بألوانها لا تحتاج إلى الإيحاء ((وقد أقبل عليها الشعراء يصفونها ويتحدّثون عنها، وقد تستقلّ فاكهة معينة باهتمام الشاعر فيخصّها بخياله لا يكاد يتجاوزها إلى غيرها، وقد تكون مدخلاً لفكرةٍ أو مخرجاً من أخرى، وعندئذٍ يمزج بينها وبين الحديث عن الأشجار والأزهار والمياه...))[2].

من بين الشعراء الذين أخذ وصف الثمار في شعرهم مأخذاً كبيراً (ابن صارة ت٥١٧هـ) إذ يقول[3]:

ونارنجةٍ لم يدع حُسنُها لعينيّ في غيرها مَذهَبَا

فَطَوراً أرى ذَهَباً مُضرَماً وَطوراً أرى شَفَقاً مُذهبَا

(١) اللغة والحواس، رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية، د. محمد كشاش: ١٨٨.
(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ١٢٠.
(٣) ديوانه: ٤٧.

وصف الشاعر الثمار في بيانه للطبيعة الصامتة، فنراه يخلّد فيها نعمة سابغة من نعم الله، فهو يصوّرها بكلّ ما أوتي من وسائل فنية تتيح له أن يبدع في هذا المجال.

لم تتح هذه الثمرة للشاعر مجالاً أن يمتّع نظره في غيرها، وذلك لما تحويه من ألوان برّاقة، فأوحت للشاعر لونين متداخلين في الطبيعة، الأول: جسّده بالذهب المحمرّ وما يدلّ عليه من صفاء ونقاء، والآخر: جسّده بوقت الغروب واختلاط اللونين الأحمر والأصفر، في مزاوجة جميلة، جعلت البيتين متناسقين على الرغم من اختلاف الألفاظ، وقد رصد الشاعر هذا التداخل اللوني بصورة دقيقة، ونقله إلى المتلقي بأسلوب مميزٍ وجميل.

وفي موضع آخر يصف (ابن زمرك ت٧٩٧هـ) الكمثرى فيقول فيها[١]:

أنبـــاتُ روضٍ أم حقـــاق زبرجـــدِ فـــي خُضـــرةٍ شـــيبت بصـــفرة عســـجدِ

ذوبُ اللجـــين وقـــد كســـاهُ حُســـنُهُ خُضـــر الحلـــى للســـندس الخَضِـــل النـــدي

كانـــت أزاهرهـــا زواهـــر لؤلـــؤٍ ثـــم اســـتحالت بعـــدها لزمـــرّدِ

يتعجب الشاعر من شكل هذه الثمرة ولونها، هل هي من ثمار الرياض؟ أم هل هي حجرٌ ملوّن بهذه الألوان البهية؟ فهي ما بين لون الخضرة، وصفرة العسجد، وحسن لون الفضة وبياضها.

يمزج الشاعر في هذه الأبيات بين عناصر الطبيعة، كالأزهار، والورود، وعناصر الجمال التي تحملها الأحجار الكريمة كاللؤلؤ، والعسجد، والزمرد، فهي تزيّن المشهد البصري بما تشتمل عليه من بريقٍ، ووهجٍ، ونضارة. والشاعر حينما يصف الطبيعة الجامدة وتجلّياتها، لا يفوته أن يأتي على ذكر هذه العناصر المادية المطرّزة بالألوان، وهذا دأب الشاعر الأندلسي المفتون ببيئته وطبيعتها.

(١) ديوانه: ١٩٤.

أمّا (أبو البقاء الرندي ت٦٨٤ هـ) فيصف تفاحة اختلط فيها اللون الأحمر بالأصفر فقال(١):

تفاحـــــة كالمســـــك نفّاحـــــةٌ يصـــبو لهـــا النـــاظرُ والناشـــقُ

جَـرَت بهـا الحمـرةُ فـي صـفرةٍ كمـا التقـى المعشـوقُ والعاشـقُ

يكثّف الشاعر فكرته الشعرية في تصوير التفاحة التي نظرت إليها العيون، واستُنشِق عطرها، إلاّ أنّ لونها المتداخل أوحى للشاعر بمنظر التقاء العاشقين وما يحكيانه من ألوانٍ بدت على وجهيهما، فهي من جهة تحاكي صفرة وجه العاشق الكمد الذي أضناه الشوق، ومن جهة أخرى تحاكي وجنة المعشوقة المحمرّة خجلاً، وهي لمحة طريفة جسّدها الشاعر من خلال رصد اللونين (الأصفر والأحمر).

وفي موضع آخر يظهر الشاعر (ابن خفاجة ت٥٣٣هـ) اللون الأسود بصورتين مختلفتين من خلال وصفه لثمر العنب فيقول(٢):

وأسـود معسـول المُجـاج لـو انّـهُ لمـى شـفةٍ لـم أروَ يومـاً مـن القُبْـلِ

حكـى ليلـةَ الهجـرِ اسـوداداً وإنّـهُ لأشـهى وأنـدى مـن جَنَـى ليلـةَ الوَصْـلِ

اتّسم المشهد الشعري في البيتين بالانتقال من حالة إلى أخرى، مع اقتران كلّ منهما بما يناسبه، مع اشتراكهما باللون الأسود، وهذا الاقتران اللوني كان متناسقاً، فاللون السود في البيت الأول كان صفة لهذا الثمر، أمّا البيت الثاني فكان متّشحاً بالسواد الذي يحكي ليلة هجر محبوبه له.

فالشاعر يرسم مفارقة تصويرية نفسية بين اللون الأسود والطعم، فالعنب أسود معسول الريق، وهو بسواده الضارب إلى الحمرة، تحوّل ناطقاً بالأنوثة إلى شفة لمياءَ لم يرتوِ الشاعر من لذة رضابها. ثم يسمو الشاعر باللون الأسود ليغدو سواده مشبهاً ـ معنوياً ونفسياً ـ وقع ليلة هجر المحبوب على نفس حبيبه، ويغدو

(١) شعر أبي البقاء الرندي: ٧٠٧.
(٢) ديوانه: ٣٥٠.

طعمه أشهى لذة مما يجنيه الحبيب من ليلة وصلٍ مع المحبوب. وبذلك يقدم الشاعر دلالتين متباينتين، فهو في البيت الأول يحمل دلالة الطعم اللذيذ في اقترانه بلون العسل، ودلالة اللذة الحسية في اقترانه بلون الشفاه ـ اللمى ـ في مقابل ما ذكرناه من دلالات سلبية في البيت الثاني.

٤. الأنهار والبحار:

شكّلت الأنهار والجداول بكلّ مظاهرها مادةً ثرّة أفاد منها الشعراء في وصفهم للطبيعة الصامتة، فهي تعزز الجمال الماثل أمام أعينهم، ساعدتهم على ذلك، تلك البيئة المحيطة بهم، فأخذوا يصفونها ويصفون ما اشتملت عليه من مظاهر خلابة، فكان اللون يحمل نصيباً وافراً من تلك المشاهدات الطبيعية التي أثارت قرائح الشعراء، فجسّدوها خير تجسيد.

من ذلك قول (أبي البقاء الرندي ت٦٨٤هـ)[١]:

وأزرق محفوف بزهرٍ كأنهُ نجومٌ بأكناف المجرّة تُزهِرُ

يسيلُ على مثل الجُمانِ مُسلسلاً كما سلّ عن غمدٍ حسام مجوهرُ

وقد صافح الأدواح في صفحاته رقيقُ حبابٍ بالنسيم مكسّرُ

إذ تنساب الأبيات الشعرية في هذه المقطوعة انسياب النهر الذي وصفه الشاعر، إلاّ أنّه زاد على ذلك بأن وشّى لوحته بألوانٍ باردة[٢] جعلت المشهد يبدو كذلك.

يبدأ الشاعر أبياته باللون الأزرق الذي يشابه في لونه وبهائه، نجوم السماء المتلألئة، ثم يُظهر الشاعر الماء في صورة لونية جميلة لجريانه الذي يشبه السيف

(١) شعر أبي البقاء الرندي: ٧٠٢.
(٢) سمّيت الألوان الزرقاء والقريبة منها بالألوان الباردة، لأنّ السماء والمياه ـ وكلاهما مصادر برودة ـ تميل ألوانهما إلى الزرقة. ينظر: نظرية اللون، د. يحيى حمودة: ٥٣.

المرصّع بالحليّ، ثم ينتقل إلى وصف جانب النهر الذي يسير فيه الحباب بهدوء، وما يلبث بعد ذلك إلاّ أنّ يتكسّر من فعل النسيم به.

تبدو الأبيات مرتكزة على اللون بصورة رئيسة، فأفاد من الألوان الصريحة وغير الصريحة، وما تحمله من دلالات أخذت مأخذاً كبيراً في ذات الشاعر المرهفة بتصوير هذا المنظر الجميل.

وفي موضع آخر يصوّر (ابن الأبار ت٦٥٨ هـ) نهراً متلوناً بألوان الطبيعة فيقول[١]:

ونَهْـرٍ كَمـا ذابَـتْ سَـبَائِكُ فِضَّـةٍ ... حَكَـتْ بِمَحانيـهِ انْعِطـافَ الأراقِـمِ

إذَا الشَّـفَقُ اسْـتَوْلى عَلَيْـهِ احْمِـرَارُه ... تبـدَّى خَضـيباً مِثْـلَ دَامِـي الصَّـوارِمِ

وتَحْسِـبُهُ سُـنَّتْ عَلَيْـهِ مُفَاضَـةٌ ... لإرْهـابِ هَبَّـاتِ الرِّيـاحِ النَّواسِـمِ

وتَطْلَعُـهُ فـي دُكْنَـةٍ بعـدَ زُرْقَـةٍ ... ظِـلالٌ لأَدْواحٍ عَلَيْـهِ نَـوَاعِمِ

كَما انْفَجَرَ الفَجْرُ المُطِلُّ عَلى الدُّجى ... ومِـنْ دُونِـهِ فـي الأُفْـقِ سُـحْمُ الغَمَـائِمِ

بدا تأثر الشاعر بطبيعته الساكنة (النهر)، والمتحركة (الأراقم) واضحاً، إذ كان هذا التأثر موشّى بألوانٍ بدت صريحة وغير صريحة.

فالشاعر في البيت الأول لم يصرّح بلونٍ محدد، بل أشار إليه من خلال سبائك الفضة ودلالتها على اللون الأبيض، فيما صرّح في البيت الثاني وبوضوح بأنّ احمرار الشفق مثّل عنده فعل الصوارم في الأعداء، وهو بذلك لم يخرج عن بيئته التي عاش فيها وما احتوته من معارك أثّرت على ما أنتجه من صورة شعرية تلوّنت بلون الدم تارة، وبغيره تارة أخرى.

(١) ديوانه: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

كان للبيئة الأندلسية الجميلة أثرها الواضح في الألفاظ والصور الشعرية من خلال البيت الثالث، فما كان من الشاعر إلاّ أن أغدق الأوصاف اللونية كما فاض النهر على جوانبه.

إنّ جمال المنظر الأندلسي، واستجابته للتأثير المكاني في مخيلة الشاعر بدا واضحاً من خلال استعماله لألوانٍ توحي بالعمق والتركيز، تؤكده (الدكنة) و(الزرقة) وما تظهره من كثافة وثراء.

إنّ ما يعتلج في صدر الشاعر من مشاعر حاول أن يخفيها خلف المشهد الجميل الرقراق، ظهرت ضبابية في بيته الثاني، إلاّ أنّه لم يستطع إخفاء ذلك في نهاية أبياته، فشبّه الفجر بثورة على الظلام الحالك، على الرغم من تأثير الغمام على المشهد الذي صوّره الشاعر.

وتتشابه صور شعراء هذا العصر كثيراً في تناولهم للمشاهد المائية، ويدل هذا على طبيعة لغة العصر وأسلوبه المتمثّل في التناول المستساغ للطبيعة وما يكتنفها من تغيّرات كثيرة.

من ذلك صورة البحر في الشعر الأندلسي التي تمثّلت في شعر (الأعمى التطيلي ت٥٢٥هـ) حين يرسل تحية إلى ممدوحه فيقول[١]:

بعثت به طيفَ الخيالِ ولم يكن ... لِيَسْلُكَ بين الهُضْبِ والموجُ كالهضب

وَهَبْهُ مضى قِدْماً ولم يَثْنِ عَزْمَهُ ... غواربُ خُضْرٌ تُتَّقَى بِذُرى شهبِ

وبيدٌ كأيامِ الصدودِ ترى الضحى ... بها شاحباً لا من شكاةٍ ولا حُبِّ

يبعث الشاعر سلاماً إلى ممدوحه ويأمل أن يجتاز بحوراً مظلمة، ثم يسلم الحال إلى البحر ليكمل المهمة، فيصوّره وهو هادرٌ بأمواجه الخضر المتلاطمة، ثم يستذكر من خلاله أيام الصدود وما يكتنفها من تباريح وجد تلمّ بصاحبها.

(١) ديوانه: ١٣.

ألقى الشاعر على البحر ما تعتمل به النفس من لواعج وأحزان، وأفاد من رمزية اللون الأخضر في عمقه البعيد، ودلالته - في بعض الأحيان - على شدة السواد[١]، الذي يصوّر النفس البشرية وخباياها وأسرارها، وهذا يعكس نفسية الشاعر الذي عانى كفّ البصر، فاصطبغت الرؤيا في ذهنه بألوانٍ قاتمة مظلمة.

٥. الظواهر الكونية وما يتّصل بها:

اشتملت الطبيعة على موحيات لونية أخرى من خلال وصف الشعراء ((لليل والنهار، ولهب النار ولمعان البرق وأصوات الرعد، ومسرى النسيم وعصف الريح، وتعدّ هذه الأمور كلّها من صميم الظواهر الطبيعية في البيئة الأندلسية))[٢].

من ذلك قول (ابن الزقاق البلنسي ت٥٢٨هـ) يصف الشمس[٣]:

كأنَّ البحرَ إذْ طَلَعَتْ ذُكاءٌ ... ولاح بمتنه منها شعاعُ

جيوشٌ في السوابغِ قد تبدَّى ... لبيضِ الهندِ بينهما التماع

إذ يستثمر الشاعر الأشعة والألوان الصريحة وغير الصريحة، وانعكاسات الضوء، في رسم مشهد شروق الشمس، فيستعين بصورة الحرب الراسخة في مخيّلته، وما تتطلب من آلاتٍ رآها مجسدة على صفحة الماء، فكانت اللوحة التي رسمها الشاعر نابضة بالحياة، إذ قام اللون بدورٍ بارزٍ في تكوينها، من خلال الرؤية البصرية، التي منحها اللونُ بعداً خاصاً في تشكيل الصورة الشعرية.

وفي موضع آخر يصف (ابن فركون ت٨٢٠هـ) الهلال بصورة طريفة يخلص فيها إلى المدح فيقول[٤]:

كأنّ الهِلالَ على أدْهمٍ ... من الليلِ سرْجٌ وقدْ فُضِّضا

---

(١) ينظر: فقه اللغة وسرّ العربية، للثعالبي: ٧١.
(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ١٥٧.
(٣) ديوانه: ١٩٨.
(٤) ديوانه: ١٩٠، ومظهر النور الباصر، جمع أبي الحسين ابن فركون، إعداد: محمد ابن شريفة: ١١٦.

كـــأنّ ثرَيّـــاهُ راحـــةُ خَـــوْدٍ تُعَـــوِّذُهُ خَمْسُـــها إذْ أضـــا

يستعمل الشاعر أسلوب التشبيه في تصويره لمشهد الهلال وسط السماء الصافية، إذ يتخيّل الهلال ـ بشكله ولونه ـ سرجاً مفضضاً، ويصوّر الثريا على أنّها راحة فتاة حسناء ناعمة، تشير بأصابعها الخمسة، لتعوّذ الممدوح الذي ينير ما حوله. وقد شكّلت الألوان في هذين البيتين عنصراً مهماً في وصف الشاعر للهلال، إذ مثّله بالضياء الذي يبدد الظلام المخيّم، ويعكس من خلال توهجّه، التأثير الذي يحدثه على المشهد برمّته.

ومن الظواهر الكونية التي استرعت اهتمام شعراء الأندلس في الوصف، مشهد الليل والنهار وتعاقبهما، إذ يثير بألوانه وتجلّياته دلالات عميقة، يسجّل الشاعر من خلالها رؤيته ونظرته من ناحية قتامتها، أو انفتاحها على آفاق رحبة، تُتيح المسرّة والتفاؤل، من ذلك قول (ابن صارة ت٥١٧هـ)[١]:

وليـــلٍ كـــأنّ الـــدهر أفضـــى بعمـــره جميعـــاً إليـــه فـــانتهى فـــي ابتدائِـــهِ

تكـــاثفَ ظِـــلُّ الغـــيمِ فيـــه فَلَـــم تَكُـــنْ بـــه العـــينُ تـــدري أرضـــه مـــن ســـمائِهِ

إذا افتـــرَّ فـــي أبعـــاده بـــرقُ دُجنـــةٍ حَكَـــى حَبَشـــياً ضَـــاحِكاً مـــن بُكَائِـــهِ

ضـــربتُ بسـيفِ العَـزمِ عُنـقَ ظَلاَمِـهِ وَضَـــرَّجتُ بُـــردَي فَجـــره مـــن دِمائِـــهِ

يصفُ الشاعرُ الليلَ الطويلَ بصورةٍ جميلةٍ تُبرز التأثير النفسي الذي ألمّ به، فكأنّ طول هذا الليل، مستمدٌّ من طول الدهر الذي أعطاه كلّ عمره، لكنّ ذلك لم يكن إلاّ ابتداء ليل الشاعر.

ثم يسترسل الشاعر في وصف شدة سواد هذا الليل، إذ تكاثفت الغيوم مُطبقةً على السماء، فاختلطت الرؤيا، ولم يعد يميّز بينها وبين الأرض، حتى البرق الذي ينير السماء بتوهّجه؛ يسلبه الليل الحالك نوره، فيغدو تأثيره كومضة عابرة، تُشبه

(١) ديوانه: ٤٥.

ابتسامة حبشيٍّ باكٍ، فينكشف سواد بشرته عن بياضٍ يسيرٍ ممثّل بالأسنان، فيتلاشى بصورةٍ خاطفة.

هذا السواد الحالك المطبق، يعكس نفسية الشاعر الملأى بالخوف والحذر، وهواجس مجهولة، تجعله ينغلق على ذاته، لكن الإشارة إلى وميض البرق الخاطف، تفسح المجال للشاعر أن يتطلّع إلى عالمٍ أوسع، أحسّ به الشاعر فبث فيه بصيص حياة، وهو ما تجلّى في البيت الرابع حين تخلّص الشاعر من همومه، فانبرى متسلّحاً بشدة عزمه ليبدد الظلام، حتى تضرّج بُرد الليل بالدماء، فانكشف عن فجرٍ منيرٍ يجلو كلّ عتمة.وقد لعب اللون دوراً أساسياً في رسم مشهد الليل في هذه اللوحة الشعرية الجميلة، إذ عبّر عن انتقالات نفسية عميقة في ذات الشاعر، ومن ثم القدرة على امتلاك زمام الصورة الشعرية، وتطويعها في بنية النص.

وفي موضعٍ آخر يكرّس (الأعمى التطيلي ت٥٢٥هـ) دلالات الليل في الصورة الشعرية الأندلسية، إذ يؤكد تأثير المدة الزمنية المتمثلة بطول الليل فيقول[١]:

ألقى المراسيَ واشتدتْ غَيَاطِلُهُ[٢] على ذُكَاء فلم تَطْلُعْ ولم تَغُرِ

فالشاعر يستعين بمعطياتٍ معنوية راسخة في ذهن المتلقي من خلال ثقل المراسي، التي تبعث في النفس معاني الثبوت، والرسوخ، وطول الإقامة، ثم يعمّق الأثر اللوني لليل من خلال حلكة السواد المتمثلة في لفظ (غياطله).

على الرغم من مجيء اللون بلفظٍ غير صريح، إلاّ أنّ الدلالات التي اكتسبتها الصورة الشعرية المستوحاة من البيت، كانت زاخرةً بالمعاني، وفرض اللون فيها حضوراً فاعلاً، عبّر عن قوة المشهد الذي رسمه الشاعر، فانسجم مع المستوى

(١) ديوانه: ٥١.

(٢) الغيطلة: هي اختلاط ظلامة الليل، والغيطلة من الليل: التجاج سواده، وقيل: التباس الظلام وتراكمه. ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد: ٢/ ٩١٨، وأساس البلاغة، الزمخشري: ١/ ٧٠٥، وتاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي: ٣٠/ ١٠٦.

النفسي الذي تركه للمتلقي، ليتآلف مع النصّ، ويشترك مع الشاعر في أحاسيسه ومشاعره.

ب ـ الطبيعة الحيّة:

تعدّ الطبيعة الحية المتحركة، القسم الثاني من أقسام البيئة الطبيعية ((ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان))[1].

فالحيوانات على اختلاف أنواعها تشكّل قيمة كبرى ترفد الصورة اللونية بفيض من الصفات والألوان الصريحة وغير الصريحة، فضلاً عن ذلك فإنّها تبيّن مدى اهتمام الشعراء في رصد حركات الحيوانات وسكناتها، والوقوف على طبائعها.

أتقن الشاعر الأندلسي وصف الحيوانات بصورة كبيرة، ووقف بعناية بالغة على دلالة ألوانها، مُدركاً السمات التي تتميّز بها، والجزئيات التي يُثبت من خلالها دقة مزج الألوان، أو التفرّد بلونٍ واحد، أو يمنح كلّ لونٍ ما يحتاج إليه من ظلٍّ ونور، لذا ستقف الدراسة على أبرز الموضوعات التي تجسّد شعر الطبيعة الحية، وأبرزها (الخيل).

١. اللون في وصف الخيل:

لعلّ الخيل من أهم مظاهر الطبيعة الحية المجسّدة في الشعر العربي، إذ لا يكاد يخلو منها ديوان شعر، سواء أكان ذلك عرضاً، أم تعمّداً، فانبرى الشعراء يصفون سرعتها، وقوتها، وأصالتها، وألوانها، وقد عقد ابن قتيبة في كتابه باباً لألوان الخيل[2]، وهو يدلّ على عظيم اهتمام العرب بها، وعنايتهم بصفاتها.

تأتي أوصاف الخيل حين يصوّر الشعراء الحرب، وكيف أنّها تلفت الأنظار وسط المعركة بمشيتها وألوانها، ناهيك عن ارتباطها بالممدوح وبـ((القيم والمثل التي يوحيها ذكرها ويومي إليها وجودها ممّا يتّصل بالشرف والعزة والفخر والعُلى،

(١) الطبيعة في الشعر الأندلسي: ٧.
(٢) ينظر: أدب الكاتب، ابن قتيبة: ١١٢ ـ ١١٣.

وبذلك تأخذ الخيول بعداً آخر في شعرهم إلى جانب كونها أداة تنقّلٍ وحركة))[1]. وقد أكثر شعراء الأندلس من وصف الخيل، وبدا تركيزهم واضحاً على ألوانها في معظم القصائد التي فصّلت القول فيها، إذ يأتي (ابن زمرك) و(لسان الدين بن الخطيب) و(ابن خفاجة) و(ابن حمديس) في مقدمة الشعراء الذين افتتنوا بالخيل، وأولوها عنايتهم فنعتوها بدقة، وشبّهوها بتشبيهاتٍ حسنة، ووقفوا على الاختلاف اللوني لأشكالها، فكثيراً ما يعمد الشاعر إلى الاستعانة ((بالتشبيه وبالصور والأخيلة والألوان، ويستخدم الطبيعة كلها في سبيل توضيح فكرة، أو تثبيت لون في اللوحة الأصلية))[2]. من ذلك قول (ابن زمرك ت٧٩٧هـ)[3]:

من أشهبٍ[4] كالصبحِ يطلع غرةً ... في مستهلِّ العسكرِ الجرّارِ

أو أدهمٍ[5] كالليلِ إلاَّ أنّه ... لم يرضَ بالجوزاء حلي عِذارِ

أو أحمرٍ كالجمر يذكي شعلةً ... وقد ارتمى من بأسه بشرارِ

أو أشقرٍ[6] حلّى الجمالُ أديمَهُ ... وكساهُ من زهو جلال نُضارِ

أو أشعلٍ[7] راق العيون كأنه ... غَلَسٌ يخالط سُدفةً بنهارِ

شهبٌ وشقرٌ في الطراد كأنها ... روضٌ تفتّحَ عن شقيقِ بهارِ

تتوافق الخيل التي وصفها الشاعر مع تحوّلات الظواهر الطبيعية المتكررة يومياً، فمنها الأشهبُ الذي يشبه الصبح المنير، وبياضه وسط أجواء المعركة الحالكة

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ١٤٥.
(٢) الوصف عند امرئ القيس (دراسة تحليلية)، نصر الدين فارس: ٤١.
(٣) ديوانه: ٤٠٧.
(٤) الشهب والشهبة: لون بياض، يصدعه سواد في خلاله. لسان العرب، مادة (شهب).
(٥) الدهمة: السواد، والأدهم: الأسود، يكون في الخيل والإبل وغيرهما. لسان العرب، مادة (دهم).
(٦) الأشقر من الدواب: الأحمر... حمرة صافية. لسان العرب، مادة (شقر).
(٧) أشعل: هو البياض الذي يكون في طرف ذنب الفرس أو ناصيته. ينظر: الاشتقاق، ابن دريد: ١٨٩، والأنوار ومحاسن الأشعار، الشمشاطي: ١٣٥.

السواد، يجعله يبدو كالغرة وسط ذاك المعترك. ومنها الأدهمُ كسواد الليل البهيم، إلاّ أنّه لا يرضى أن تكون الجوزاء حليّ عذاره، في كناية عن طول أذنه ونحره وسالفته، وهي من الأوصاف المحمودة في الخيل[1]. ويرسم صورة الفرس الأحمر الذي يحاكي الجمر اتّقاداً وهمة. ويبرز من بين تلك الخيل، الأشقر الذي منحه سمة الجمال لانعكاس الضوء على جسمه، واكتسابه الزهو لمشابهته لون الذهب.

ثم يختتم وصفه بذكر الفرس الأشعل، وكأنّه يتوهّج سناً في العيون، وقد اختلطت الألوان فيه ما بين حمرة جسمه، والبياض الذي يزيّن ناصيته وذنبه.

شكّل اللون في هذه الأبيات ركيزة استند عليها الشاعر في وصفه ورسمه للصورة الشعرية، فهذه الصور المتلاحقة، تعدّ مشهداً طبيعياً يضجّ بالحركة والألوان، وهو ما يحاول الشاعر أن يقرره في تصوير مشهد الحرب الضروس.

وفي موضع آخر ينظم (ابن حمديس ت٥٢٧هـ) قصيدة في ممدوحٍ أهديت إليه مجموعة خيل، والقصيدة مكوّنة من (٢٧) بيتاً، إلاّ أنّ الشاعر يسترسل فيها بوصف هذه الخيل، فلا يُبقي لممدوحه نصيباً من هذه المِدحة، إلاّ (٤) أبيات يختتم بها القصيدة، إذ يبدو أنّ الشاعر افتتن بجمال هذه الخيل، فنراه يفصّل القول في ألوانها، ومشيتها، وسرعتها، وأصواتها ويلقي عليها من التشبيهات الرائعة، التي تنمّ عن إحساس الشاعر بجمالية المنظر، الذي انعكس تأثيره على أبياته، فأشرك المتلقي بهذا الإحساس المكتنز بالجمال، إذ يقول[2]:

جاءتك أولادُ الوجيه ولاحقِ ... فأرَتْكَ في الخَلقِ ابتداعَ الخالقِ

قد وَقّعتْ لك بالسعود وما جَرَتْ ... بسوادِ نِقْسٍ في بياض مَهارِقِ

غُرٌّ محجَّلَةٌ تكامَلَ خلقها ... بمجانسٍ من حسنها ومطابقِ

وكأنّما حَيّتْ عُلاكَ وجوهها ... فأسال فيها الصبحُ بيضَ طَرائقِ

(١) ينظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني: ٢/ ٦٨٦.
(٢) ديوانه: ٣٣٠ - ٣٣١.

وإذا الجــلال تجــرّدَت عــن جردهــا لبســت غلالــةَ كــلّ لــونٍ رائــقِ
وَرْدٌ[1] تَمَيَّــعَ فيــه عَنْــدَمُ حُمْــرَةٍ كــالورد أُهْـدِيَ فــي الرّبيـع لناشـقِ
وكأَنَّــهُ وكــأنَّ غُــرَّةَ وَجهِــهِ شــفقٌ تــألّقَ فيــه مطلَــعُ شــارِقِ
وَكَــأَنَّ صــبحاً خــصَّ فــاه بِقُبلَــةٍ فــابيضّ موضــعها لِعَــيْن الرامــقِ
ومزعفــرٍ لــونَ القمــيص بِشُــقْرَةٍ كــالرّيح تعصـفُ فـي التِهـاب البـارقِ
كَادَ الكميتُ[2] يَنوبُ عَن لَعسِ اللمى ويســوعُ كــالخمر الكُمَيْــتِ لــذائقِ

يصوّر الشاعر مجموعة الخيل تصويراً دقيقاً فاحصاً، يحيط بصفات الخيل، ومكامن الجمال التي تأسر الألباب بهيمنتها على حيوية المشهد الشعري، ويُبرز دور الطبيعة في التعبير عن المنحى الجمالي للقصيدة.

أشرك الشاعرُ المتلقي في أحاسيسه ومشاهدته لمنظر الطبيعة الحية، وأبانَ عن تأثير المفردة اللونية في خلق الصورة الشعرية ((إذ بدخول اللون ينقلب كيان الصورة... فاللون هو كلّ شيء في بناء شعرية المقطع، ومن دونه أو باستبداله تفقد كلّ المفردات صفتها الشعرية وتتنازل عن عطائها الفني))[3].

إنّ صياغة الشاعر لصورة الخيل بهذا الأسلوب الفني المُتقِن لرصد التفاصيل الدقيقة، لاسيّما تنوّع الألوان، يوجِدُ في النفس تقبلاً ومحبةً لهذه الخيل، إذ أفاد الشاعر من الطبيعة التي احتضنت الصورة بكلّ تجلّياتها، ثم أبدع في جعل رؤيته لمشهد استعراض الخيل، رؤية مطلقة، لا تتقيد بالزمان والمكان، بل هي أنموذج يتمتّع

(١) ورد: لون يضرب بين الحمرة والصفرة. ينظر: المخصص، ابن سيدة: ٢/ ٨٩.
(٢) الكميت: لون ليس بأشقرٍ ولا أدهم، فهو بين السواد والحمرة. ينظر: لسان العرب، مادة (كمت).
(٣) جماليات القصيدة العربية الحديثة، د. محمد صابر عبيد: ١٦.

باستجابات حسية عالية، يمكن أن تتكرر غير مرة، لاسيما وأنّ الشاعر التقط من ألوان الخيل أهمّها[١].

وفي موضع آخر يخلع الشاعر (لسان الدين ابن الخطيب ت٧٧٦هـ) على خيل ممدوحه صفةً ذات أبعاد مرتبطة بالدلالة القرآنية، فيُكسبها مرجعية شرعية، مستمدة من ألفاظ القرآن الكريم، إذ يقول[٢]:

وأعْـدَدْتَ مـنْ غُـرِّ الجِيـادِ صَـوافِنا[٣] تَغـــارُ بأدْناهَـــا البُـــروقُ اللّوامِـــعُ

مُطَهّمَـةً[٤] جُـرداً[٥] لهـا مـنْ دَمِ العِـدَى شِـياتٌ[٦] ومـنْ نسْـجِ القَتـامِ البَراقِـعُ[٧]

ومُنْصَـلِتٌ كالصُّـبْحِ أشْـهَبُ سـاطِعٌ وأحْمَـــرُ وردِيٌّ وأصْـــفَرُ فـــاقِعُ

يصف الشاعر هذه الخيل بأنّها غُرٌّ لا يدانيها حتى البرق اللامع بسرعته، وشدّة وهجه وتلوّنه، وهو يُحيل القارئ على الآية الكريمة ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ص: ٣١، فهي تامة الخلق والجمال، اكتسبت ألوانها من دم الأعداء، وجعلت براقعها غبار النقع المثار من المعركة. ثم يعدد أنواع هذه الخيل، فمنها الأبيض الأملس الواضح كالصبح، ومنها الأشهب صريح البياض، ومنها الأحمر، والأصفر الفاقع الناصع اللون.

(١) ينظر: الحيوان في الأدب العربي، شاكر هادي شكر: ٢/ ٢٨.
(٢) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، لسان الدين ابن الخطيب، دراسة وتحقيق: د. محمد الشريف قاهر: ٦١١.
(٣) يقال: صفنت الدابة تصفن صفونا: قامت على ثلاث وثنّت سنبك يدها الرابع... وصفن الفرس إذا قام على طرف الرابعة. ينظر: لسان العرب، مادة (صفن).
(٤) المطهم من الناس والخيل: الحسن التام كل شيء منه على حدته فهو بارع الجمال. ينظر: لسان العرب، مادة (طهم).
(٥) يقال: فرس أجرد، إذا رقّت شعرته وقصرت، وهو مدح، ففيه علامة على العتق والكرم. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: ٢/ ٤٥٥، ولسان العرب، مادة (جرد).
(٦) يقال: وشية الفرس، أي: لونه، والجمع: شيات. ينظر: جمهرة اللغة: ١/ ٢٤٠.
(٧) هي غرّة الفرس. لسان العرب، مادة (برقع).

اصطبغت هذه اللوحة الطبيعية المتحركة بألوانٍ شتى، كانت لها دلالاتها المختلفة باختلاف ألوانها، إذ يؤكد الشاعر أداء الألوان في تركيز الصور الجمالية المتزاحمة، وفي ذلك استبطان لأحاسيسه في تناول اللون وموحياته.

٢. اللون في وصف الحيوانات الأخرى:

ورد اللون في الشعر الأندلسي في وصف حيوانات أخرى، كان الشعراء قد أعجبوا بها وبألوانها فقيّدوا مشاهداتهم تلك بأشعارٍ تنمّ عن متابعة دقيقة لما وصفوه، لكن ذلك لم يمنع من مجيء بعض القصائد التي تفتقر إلى الجمالية والخيال المبدع الخلاق، الذي يهزّ المشاعر والأحاسيس، فتبدو الصورة الشعرية باهتة، لا تنهض بالدلالات اللونية المعبّرة كما في غيرها من نصوص.

من ذلك قول (ابن زمرك ت٧٩٧هـ) في قصيدة يصف فيها الطائر البازيّ، ثم يخلص منها إلى المدح(١):

أبدت لنا سَبَجَ(٢) العيونِ وطوّقت ... أرجاءَهَا بعقيقةٍ حمراءِ

واستاقت الياقوت في منقارها ... ومشت على المرجان في استحياءِ

وَوَشَت يَدُ الأقدارِ في أعطافها ... وشياً زرى بالحلة السيراءِ

ملكُ الطيورِ أتى إلى ملك الورى ... فاستاقها لمؤمّل الخُلَفَاءِ

فلصاحبِ الصفراءِ فَخرٌ خالد ... يحظى به من صاحبِ الحَمراءِ

بيضاً وسمراً قد شرعت لِنَصرِهِ ... وأعَنتَ بالبيضاءِ والصَفراءِ

يتّخذ الشاعر من وصف هذا الطائر موضوعاً يدخل به على ممدوحه، ويركز على المظاهر اللونية التي تزيّن المشهد. فالطائر يمتلك عيوناً سوداء صافية كالسبج، تحيط بها هالة حمراء اللون تشبه العقيق، وفي ذلك إشارة إلى اتّقاد العيون وحدّة

(١) ديوانه: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.
(٢) السبج: خرز أسود. لسان العرب، مادة (سبج).

نظرها، وهو ما يزينّ الطائر والممدوح. ثم يسترسل في ذكر الأوصاف اللونية التي تجمّل المشهد، ويذكر أنّ جمالها لا تدانيه حتى الحلة السيراء بألوانها المتداخلة في حسنٍ ولطافة.

على الرغم من احتفاء القصيدة بالألوان الزاهية والمطرزة، إلاّ أنّ الشاعر لم يكن موفقاً في تناول الجانب الدلالي من ناحية اتّفاق المعاني مع دلالات الألوان ومعطياتها في اللوحة الشعرية المرسومة، فكان المشهد أقرب إلى الوصف التقريري.

ونراه في موضع آخر يتناول طيراً جارحاً، لكنّ وصفه يرتقي إلى مستوىً أعلى من سابقه، إذ يهيمن المشهد الطبيعي على الصورة بشكلٍ بيّن، فيبدع في وصف رحلة الصيد، ويجعل المتلقي في إحساس المشارك، فيقول(١):

وجـــوارحٍ ســـبقت إليـــه طلابهـــا ... فكأنّمـــــا طالبنـــــه بالثّـــــار

ســـودٌ وبـــيضٌ فـــي الطّـــراد تتابعـــت ... كالليـــل طـــارَدَهُ بيـــاضُ نَهَـــارِ

وبكـــلّ فتخـــاء الجنـــاح إذا ارتمـــت ... فكأنهـــا نجـــمُ الســـماء السّـــاري

زجـل الجنـاح مصـفق كَمِـن الـردى ... فـــي مخلـــبٍ منـــه وفـــي منقـــارِ

أجلى الطريدَ من الوحوش وإن رمى ... طيـــراً أتـــاك بـــه علـــى مقـــدارِ

وأريتنـــا الكســـب الـــذي أعـــداده ... مـــلأت جمـــالاً أعـــين النّظّـــارِ

بـيضٌ وصـفرٌ خلـتَ مطـرحَ سَـرحِهَا ... روضـــاً تفـتّح عـن شـقيق بهـارِ

تتناوب الوحدات اللونية وموحياتها في أبيات الشاعر فهي سود وبيض وصفر، وموحيات لونية أخرى، جاءت لتؤكد هيمنتها على الحدث الرئيس ومجرياته، إذ نراها تتداخل بين السواد والبياض، في مذظر يبينّ استباق الليل والنهار، وهي صورة لونية مستمدة من وصف الطبيعة الساكنة، لكنها تليق بوصف المشهد،

(١) ديوانه: ٤١٦.

وتؤسس لدلالاته العميقة بما يوحي في النفس حضور تفاصيل رحلة الصيد، على الرغم من غيابنا عن المشهد الحقيقي.

رصد الشاعر عبارات لونية مخصوصة بأسلوب جميل، وجاءت ضمن سياقات بلاغية تنبئ عن قوة التعبير في إظهار الصورة الشعرية المرسومة بألوان متنوعة؛ لكي تكمل المشهد الذي رسمه لهذه الرحلة.

ومثل ذلك فيما يتعلّق برحلة الصيد، قول (ابن خفاجة ت٥٣٣ هـ) يصف كلب قنصٍ مطوّق العنق بالبياض، محجّل الأربع، ويصف أرنباً[١]:

وَأَطلَسَ مِلءُ جانِحَتَيهِ خَوفٌ ... لأشوَسَ مِلءُ شَدقَيهِ سِلاحُ

نجا هرباً يَطيرُ حَذارَ طاوٍ ... لَهُ رَكضٌ يَغَصُّ بِهِ البَراحُ

وَأَعجَبُ أَن تَقَلَّصَّ ذَيلُ لَيلٍ ... أَحَمَّ وَقَد أَجَدَّ بِهِ الرَواحُ

يَجولُ بِحَيثُ يَكشِرُ عَن نِصالٍ ... مُؤَلَّلَةٍ وَتَحمِلُهُ رِماحُ

وَطَوراً يَرتَقي حُدبَ الرَوابي ... وَآوِنَةً تَسيلُ بِهِ البِطاحُ

جَرى شَدّاً وَلِلصُبحِ اِلتِماعٌ ... بِحَيثُ جَرى وَلِلبَرقِ اِلتِماحُ

فَخَلخَلَهُ وَسَوَّرَهُ وَميضٌ ... جَرى مَعَهُ وَطَوَّقَهُ صَباحُ

يصوّر الشاعر في رحلة صيد، مطاردة بين كلبٍ قنص وأرنب، فتشتدّ هذه المطاردة وتستمرّ بينهما طوال الليل حتى ابتداء الصباح.

إذ يرصد الشاعر تحركاتهما ومظاهر اقترابهما وابتعادهما الواحد عن الآخر، ثم يركز تصويره على كلب القنص في سكناته وحركاته واهتياجه واندفاعه حتى الصباح، في إشارة إلى طول هذه المطاردة.

(١) ديوانه: ١٤٧.

أفاد الشاعر من موحيات غياب اللون وحضوره في رسم صورة المطاردة، إذ يصوّر الليل بعتمته، والتماعات فجر الصباح، ووصف سرعة الكلب المشابهة لسرعة البرق، وكانت الأبيات تحكي مشهداً متحركاً تداخلت فيه موحيات الظلمة والنور وأثرهما في النفس، فهي صورة جميلة ((تنطق بسرعة الحركة، وتتضمن قدراً لا يستهان به من التلوين والمزج إلى جانب التفصيل في الصفات، ممّا يدعو إلى التأمّل وطول النظر))[1].

لا يقتصر وصف الطبيعة المتحركة في الشعر الأندلسي على وصف رحلة الصيد وما فيها من متعة، بل سار الشعراء على نهج المشارقة من ناحية ذكر الحيوانات المفترسة وغيرها، وأبرز تلك الحيوانات (الذئب)، إذ أبدع الشعراء في وصفه، كونه ينبع من خبايا النفس وما تجسّده تلك المقابلة بين الشاعر والذئب من تحديات يستلهم منها الشاعر المعاني التي تعتمل في نفسه، فيحاول أن يستنطقها من خلال وصف الذئب.

ومن الطبيعي أن تشتمل اللوحة على ألوانٍ يتّصف بها الذئب من ناحية لونه أو لون عينيه أو وصف الوقت الذي تتمّ فيه المقابلة بين الشاعر والحيوان، وكلّ ذلك له دلالته التي تجمّل المشهد بما تحويه من صور لونية مختلفة.

من ذلك قول (ابن خفاجة ت٥٣٣هـ)[2]:

وَمَفــــازَةٍ لا نَجــــمَ فـــي ظَلمائِهـــا ... يَســــري وَلا فَلَــــكٌ بِهـــا دَوّارُ

تَتَلَهَّــبُ الشِــعرى بِهـــا وَكَأَنَّهـــا ... فـــي كَـــفِّ زِنجِـــيٍّ الــدُجى دينــارُ

تَرمـــي بِـــهِ الغيطـــانُ فيهـــا وَالرُبـــى ... دُوَلاً كَمـــا يَتَمَـــوَّجُ التَيّـــارُ

والقطـــبُ ملتـــزمٌ لمركـــزه بهـــا ... فكأنّـــه فـــي ســـاحةٍ مســـمارُ

---

(١) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، د. حازم عبد الله خضر: ٢٠١.

(٢) ديوانه: ٨٥ ـ ٨٦.

قَـد لَفَّنـي فيهـا الظَـلامُ وَطـافَ بـي ذِئـبٌ يُلِـمُّ مَـعَ الـدُجى زُوّارُ
طَـرّاقُ سـاداتِ الـدِيارِ مُسـاوِرٌ خَتّـالُ أَبنـاءِ السُـرى غَـدّارُ
يَسـري وَقَـد نَضَـحَ النَـدى وَجـهَ الصَـبا فـي فَـروَةٍ قَـد مَسَّـها اِقشِـعرارُ
فَعَشَـوتُ فـي ظَلمـاءَ لَـم تُقـدَح بِهـا إِلاّ لِمُقلَتِـهِ وَبَأسـي نـارُ
وَرَفَلـتُ فـي خُلَـعٍ عَلَـيَّ مِـن الـدُجى عُقِـدَت لَهـا مِـن أَنجُـمٍ أَزرارُ
وَاللَيـلُ يَقصُـرُ خَطـوَهُ وَلَرُبَّمـا طالَـت لَيـالي الرَكـبِ وَهـيَ قِصـارُ
قَـد شـابَ مِـن طَـوقِ المَجَـرَّةِ مَفـرِقٌ فيهـا وَمِـن خَـطِّ الهِـلالِ عِـذارُ

يبتدئ الشاعر قصيدته بوصف الليل الحالك الظلمة، ووصف نجم الشعرى الذي يبرز وهو يتلألأ ملتهباً بضيائه، والليل يبدو طويلاً ثقيلاً على الشاعر، إذ يشبّهه بالقطب الملازم لمكانه فلا يبرحه أبداً.

ثم يذكر الشاعر لقاءه مع الذئب في هذه المفازة القاحلة، وسط أجواء الليل البهيم، فيبتدئ تصوير الذئب بما يحمله من صفات معهودة من مخاتلة وغدر، وهو الذي يضرب به المثل في ذلك، فيقال: ((أختل من ذئب))[1].

يسترسل الشاعر في وصف الذئب، فيشير إلى استعداد الذئب للقائه، فعلى الرغم من الظلمة المخيّمة على الأجواء، إلاّ أنّ اتّقاد مقلة الذئب بما تحمله ومن غيظ وحنق، تنير عتمة الليل، يقابلها في ذلك شدّة بأس الشاعر الذي لا يخشى مجابهة الذئب. لكنّ الشاعر يتّجه إلى وصف النجوم التي زيّنت السماء، فكانت كساءً يرفل به الشاعر، وهو يختتم المشهد الليلي الطويل، متأملاً أن ينبلج عن صباح مذير يبدد تلك الظلمة القاسية.

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي: ٣٩١.

تبدو النهاية التي اختتم الشاعر بها قصيدته غير مكتملة، إذ كان الأحرى أن تتوّج تلك المقابلة بظفر أحد الطرفين، لكنّ الذي يلمح من هذه الخاتمة، اشتراك الشاعر والذئب بالخوف من هذا الليل المطبق بسوداويته، فكأنّها مواساة للغربة النفسية التي ألمّت بهما في ليلٍ بهيم لا يكاد يمضي ليجتازا هذه المحنة، وكانت الألوان عبارة عن رؤية جديدة للشاعر، تمكن من خلالها من رسم المشهد الشعري بكلّ تجلّياته، وبكلّ ما يحمله من علاقات لونية مختلفة.

وفي موضع آخر يصف (ابن زمرك ت٧٩٧هـ) حيوان الزرافة وصفاً دقيقاً يتناول من خلاله ما اتّصفت به من شكلٍ ولون ميّزاها عن سائر الحيوانات، فيقول(١):

موشـيّةُ الأعطـاف رائقـةُ الحُلـى ... رَقَمَـت بـدائعَهَا يـدُ الأقـدارِ

راقَ العيـونَ أديمُهـا فكأنّـهُ ... روضٌ تفـتّح عـن شـقيق بهـارِ

مـا بـين مبـيضٍّ وأصـفرَ فـاقعٍ ... سـال اللُجـينُ بـه خـلال نُضـارِ

يحكـي حـدائق نـرجسٍ فـي شـاهقٍ ... تنسـابُ فيـه أراقـمُ الأنهـارِ

تتجلى الرؤية التي شخّصها الشاعر في هذه الأبيات من خلال الوقوف على بديع الصنع الإلهي، في تصوير هذا المخلوق الغريب على بيئة الأندلس.

فأديم هذه الزرافة ممثّلٌ بروضة غنّاء زينها البهار الذي تدرّجت ألوانه ما بين الأبيض والأصفر والأصفر الفاقع المذساب من الذهب والفضة، فهو يشبّه خلقها وطولها بحدائق نرجس عالية، تنحدر منها الأراقم بألوانها المختلفة.

لا يخرج الشاعر الأندلسي عموماً، وابن زمرك خصوصاً عن بيئته التي يألفها وتألفه، فكلّما وصف عنصراً من عناصر الطبيعة، جذبه المشهد إلى تعداد مشاهد أخرى ملوّنة، لاسيما الرياض والأزهار والأنهار، ويقف على التداخل بين الطبيعة الصامتة والمتحركة، إذ كلٌّ منهما يدعم الآخر في إبراز الدلالة المتطلبة في التصوير الفني للمشهد الشعري.

(١) ديوانه: ٤٣١.